

عبيد الخطيئة وعبيد البرّ

القديس لوقا أسقف سيمفروبول وسائر القرم

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

قال يسوع المسيح: "مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضَيِّفُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِ يَجِدُهَا." (متى ١٠: ٣٩). لفهم هذه الكلمات، عليك أن تعرف ما هي الروح البشرية. الروح ليست سوى مجموعة من الأفكار والمفاهيم والتطلعات. هناك أرواح صالحة، وهناك من يميلون إلى الشر ومليئون بالرغبات الخاطئة. بالنسبة لمعظم الناس، تكون الروح خاضعة للجسد وتسعى جاهدة لخدمة أهوائه، وتميل إلى حياة راضية جيدة التغذية. يجب تدمير مثل هذه الروح، ويجب تدمير كل مطالبها الجسدية الأساسية، التي تدنس كلاً من الجسد والروح نفسها.

يخاطب الرسول بولس أهل روما الذين آمنوا بالمسيح، الذين تركوا أسلوب حياتهم الوثني السابق، المليء بالخطيئة والفساد، بالكلمات التالية: فَشَكَرًا لِلَّهِ، أَنْتُمْ كُنْتُمْ عَبِيدًا لِلْخَطِيئَةِ، وَلَكِنَّكُمْ أَطَعْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ صُورَةَ التَّعْلِيمِ الَّتِي تَسَلَّمْتُمُوهَا. وَإِذْ أُغْتَفْتُمْ مِنَ الْخَطِيئَةِ صِرْتُمْ عَبِيدًا لِلْبِرِّ." (رومية ٦: ١٧-١٨).

قبل أن يعرفوا الله، كانوا "مفلّوئين من كلِّ إثمٍ وزناٍ وشرٍّ وطمعٍ وخُبثٍ، مشحونين حسداً وقثلاً وخصاماً ومكرًا وسوءاً، نقاميين مُفترين، مُبغضين لله، ثالبيين مُتَعَطِّمين مُدَّعين، مُبتدعين شُرورًا، غَيْرَ ظَائِعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ، بِلاَ فَهْمٍ وَلَا عَهْدٍ وَلَا حُنُوءٍ وَلَا رِضَى وَلَا رَحْمَةٍ." (رومية ١: ٢٩-٣١).

بعد انقلاب خلاصي كبير في فكرهم، أدركوا عبودية الخطيئة وأصبحوا عبيداً للبر. ماذا يعني أن تكون عبداً للخطيئة أو عبداً للبر؟ ألا تعلم أن السكارى المدمنين أو المدخنين الشرهين لا يستطيعون الصمود أمام العادات السيئة فيصرون عبيداً حقيقيين للفودكا والتبغ؟ ماذا يعني أن تكون عبداً على أي حال؟ يعني أن تكون تحت سلطة شخص ما، في الخضوع لإرادة شخص آخر. لا يملك العبد إرادته، بل يفعل إرادة سيده؛ هكذا هم عبيد الخطيئة. مع تكرار الخطيئة، تصبح عادة قوية أكثر فأكثر، تتجذر في الإنسان، وتتحكم تدريجياً في إرادته ومشاعره وأفكاره وتحافظ عليه في قوتها. شيئاً فشيئاً، يصبح مثل هذا الشخص مفتوناً تماماً بالخطيئة. هذا يعني أنه صار عبداً للشيطان، لأن إبليس هو أبو كل خطيئة وكذب.

قد يستطيع الإنسان أن يلتقي بين المجرمين بالعديد من الأشخاص الحاصلين على تعليم عالٍ، والذين كانوا في السابق يتمتعون بمكانة اجتماعية بارزة، والذين، بعد أن شرعوا ذات مرة في الطريق الخطأ، ذهبوا إلى أبعد من ذلك. انتهى بهم المطاف في السجن، في المعسكرات، ثم أطلق سراحهم في النهاية. ثم ماذا؟ بمجرد ارتكاب الخطيئة، إذا بقيت غير تائب، تبدأ الخطيئة في الترسخ في روح الخاطيء، وحتماً مثل المستنقع، تسحب إلى الداخل، وهذا ينتج المزيد والمزيد من الخطايا. كقاعدة لا جدال فيها، اعترف كل هؤلاء الأشخاص التعساء بصراحة اعتمادهم الكامل على الخطيئة: "لا يمكنني ترك حياة الجريمة والبدء في العمل".

يطلب منا الرب أن نغيّر أفكارنا ومواقفنا، أن نقتلع الأهواء الفاحشة التي تملأ نفوسنا وتقودنا بعيداً عن المسيح. إن إزالة كل نجس من النفس يعني تدمير النفس؛ من يهدم نفسه بهذه الطريقة سيجدها ويحتفظ بها

إلى الأبد، لأنها ستصبح نوراً وترتفع إلى الله بحرية. سوف تجد أعظم خير في الشركة معه. لذلك، للحصول على الحياة الأبدية، يجب على الإنسان أن يصبح عبداً للبر. كل عمل صالح، وكل صلاة حارة تترك بصمة عميقة ومباركة في روح الإنسان، وتقدس قلبه.

وإذا تكررت كلمات الحق وأعمال الرحمة أكثر فأكثر، فإن الانجذاب إلى الأعمال الصالحة سيصبح أقوى وأعمق في نفس الإنسان، وبمرور الوقت ستتسلط عادة الصلاح والحق المقدسة. في النهاية، يصير معتاداً جداً على أعمال المحبة، وسيشعر في قلبه بشكل واقعي بثمار هذه الأعمال المقدسة المليئة بالنعمة، بحيث يصبح عبداً للبر بشكل غير ملحوظ.

ألم يكن آباء الصحراء والقديسون عبيد البر الحقيقيين؟ أو أبونا القديس بياتريم صانع العجائب في تامبوف؟ لقد كان في أسر كامل في الصلاح، وكذلك الأبرار سيرافيم ساروف، سرجيوس رادونيچ، أنتوني ونيودوسيوس من دير الكهوف، وجوق الآباء القديسين الذي لا حصر له. إن الحاجة إلى الصلاة وتنقية القلب ومضاعفة المحبة فيه، صارت بالنسبة لنفوسهم المقدسة حاجة لا تقاوم. متجاهلين كل شيء، كانوا يتطلعون فقط إلى التحرر من الخطيئة، إلى عبودية البر وحسب.

لقد تكلم سيدنا يسوع المسيح عن الأمر نفسه موجهاً كلامه إلى اليهود الذين آمنوا به: "إِنَّكُمْ إِنْ تَبْتُمْ فِي كَلَامِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلَامِيذِي، وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّزُكُمْ". أجابوه: «إِنَّا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لِأَحَدٍ قَطُّ! كَيْفَ تَقُولُ أُنْتُ: إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَارًا؟» أجابهم يسوع: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيئَةِ" (يوحنا: ٨: ٣١-٣٤).

كونهم عبيداً حقيقيين للخطيئة، لم يفهم اليهود ما هي عبودية الخطيئة، لكنهم عرفوا فقط أنهم أحرار في أصلهم من إبراهيم. وبيننا نحن المسيحيين، هناك الكثير من الناس الذين يعتبرون أنفسهم أحراراً ويفتخرون بحريتهم. إنهم لا يشكّون في أنهم في الحقيقة عبيد بائسون للخطيئة، تماماً كما أن اليهود القدامى الذين امتعضوا من كلام الرب يسوع المسيح لم يعلموا ذلك.

" وَإِذْ أَعْتَقْتُمْ مِنَ الْخَطِيئَةِ صِرْتُمْ عِبِيدًا لِلْبِرِّ. أَتَكَلَّمُ إِنْسَانِيًّا مِنْ أَجْلِ ضَعْفِ جَسَدِكُمْ. لِأَنَّهُ كَمَا قَدَّمْتُمْ أَعْضَاءَكُمْ عِبِيدًا لِلنَّجَاسَةِ وَالْإِثْمِ لِلْإِثْمِ، هَكَذَا الْآنَ قَدَّمُوا أَعْضَاءَكُمْ عِبِيدًا لِلْبِرِّ لِلْقَدَاسَةِ. " (رومية ٦: ١٨-١٩). في الواقع، العديد من أعضاء أجسادنا تعمل بمثابة أدوات للخطيئة. عقلنا المنطقي الذي يميزنا عن مخلوق غير عقلائي، يمكننا أن نجعله عبداً للتمرد، إذا لم نوجهه إلى معرفة إرادة الله وشريعته، بل إلى اختراع الخداع والإهانات لإخوتنا. إذا وجهنا أعيننا إلى التأمل النهم في المناظر الشهوانية، وإذا نظرنا إلى الناس بخبث واحتقار، فإن أعيننا، بالطبع، ستصبح أداة للنجاسة. إذا شحذنا آذاننا للاستماع إلى الثرثرة والكلام الفارغ التافه، وإلى تملق الذين يزحفون أمامنا، فإننا سنجعل آذاننا جديرة بالازدراء. ألا يكون لساننا إذ ينضح بكل الأكاذيب والإدانة والإهانة والقذف والاستنكار أداة حادة للشر؟

وكم مرة تمتد أيدينا للاحتيال والسرقة، ومن المروع القول، حتى للقتل؛ الأظافر والأسنان تُستخدَم في المشاجرات. غالباً ما يركض العديد من الأشخاص التعساء للنهب أو يسرعون "إلى مشورة الأشرار" (انظر

مزمور ١:١). السيقان العارية تثير الشهوة. حتى أننا نعرف كيف نجعل شَعْرَنَا أداة للخطيئة، لأن النساء بحاجة إلى تسريحات الشعر المعقدة وزخارف الشعر لإغواء الرجال وجذبهم. هكذا ندمر أرواحنا بالاستخدام الخاطئ لأعضائنا.

أليس معلوماً كم يقع من يسلمون أجسادهم للشهوانية في الزنا والفجور؟ لكن الرسول يقول: "جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُّوسِ الَّذِي فِيكُمْ، الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ،" (١كورنثوس ٦:١٩). كيف يسلم هيكل الله للنجاسة وكيف تلوّثه؟

في النهاية، يمكننا توجيه جميع أعضائنا إلى الصلاح. فلنوجّه أذهاننا بالكامل إلى معرفة إرادة الله وناموس المسيح، وإلى التقوى في التعاليم والاستقامة بقراءة أعمال آباء الله وقديسيه العظماء. فلندع أعيننا دائماً تشخص عقلياً إلى صليب المسيح الرهيب، إلى جمال الله النقي في الطبيعة.

أفلا تكون أيدينا التي تقدم الصدقات بسخاء لمن لا حول لهم ولا قوة وتخفف من احتياجاتهم وأمراضهم بكل الطرق الممكنة، أكثر أدوات البرّ طبيعية؟ وحتى أقدامنا يمكن أن تصبح جميلة، لأن " «مَا أَجْمَلُ أَقْدَامَ الْمُبَشِّرِينَ بِالسَّلَامِ، الْمُبَشِّرِينَ بِالْخَيْرَاتِ» " (رومية ١٥:١٠).

إن تخلي الفرد عن أعضائه في عبودية البرّ يعني التغلب على شهوات الجسد الأساسية، واكتساب القوة على أعضائه، وإبعادها عن الخطيئة. هذا يعني أن تترك طريق الإثم، وتترك بيت الفرح وتستقر في بيت النوح (راجع جامعة ٤:٧)، وتجعل قلبك هيكلًا حقيقياً لله. وحينئذ يمكن أن نقول عنك قول الرسول: " لِأَنَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ عِبِيدَ الْخَطِيئَةِ، كُنْتُمْ أَحْرَارًا مِنَ الْبُرِّ. فَأَيُّ تَمَرٍ كَانَ لَكُمْ حِينَئِذٍ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَسْتَحُونَ بِهَا الْآنَ؟ لِأَنَّ نَهَائِيَةَ تِلْكَ الْأُمُورِ هِيَ الْمَوْتُ" (رومية ٦:٢٠-٢١).

في رسالة أخرى، يتحدث الرسول بشكل مباشر عن هذه الأعمال: " وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ، الَّتِي هِيَ: زَنَى، غَهَارَةٌ، نَجَاسَةٌ، دَعَارَةٌ، عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، سِحْرٌ، عِدَاوَةٌ، خِصَامٌ، غَيْرَةٌ، سَخَطٌ، تَحْرُوبٌ، شِقَاقٌ، بِدْعَةٌ، حَسَدٌ، قَتْلٌ، سُكْرٌ، بَطْرٌ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الَّتِي أَسْبَقُ فَأَقُولُ لَكُمْ عَنْهَا كَمَا سَبَقْتُ فَقُلْتُ أَيْضًا: إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هَذِهِ لَا يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللَّهِ. وَأَمَّا تَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ، فَرَحٌ، سَلَامٌ، طَوْلٌ أُنَاةٌ، لُطْفٌ، صِلَاحٌ، إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ، تَعَفُّفٌ. ضِدًّا أَمْثَالِ هَذِهِ لَيْسَ نَامُوسٌ" (غلاطية ٥:١٩-٢٣).

أستطيع الآن أن أقول عنكم، يا رعيتي في تامبوف، أنه بعد تحرير ذواتكم من عبودية الخطيئة، أصبحتم مطيعين لتعاليم المسيح التي أحاول أن أعلمكم إياها؟ أعلم أنه ليس الكل أصبحوا عبيداً للبر. دعوا قلوبكم ترتجف مثل قلبي، لا تكن دموعي وحدها التي تُذرف حول هذا، بل أيضاً عيونكم يجب أن تذرف دموع التوبة والندم على دنسكم. إذا حررتكم أعضائكم من الأغلال الآثمة والتفتتم إلى الله، فإن ثمرة هذا التغيير ستكون القداسة، والنهاية هي الحياة الأبدية، التي يمنحها المسيح إلهنا الرحوم والغفور لجميع التائبين. آمين.

Source: Homily for the Epistle Reading of the Fourth Sunday After Pentecost , Romans 6:17-19, Delivered on July 22, 1945 in Tambov. <http://www.mystagogyresourcecenter.com/2023/07/homily-for-epistle-reading-of-fourth.html>